حاشية على

كشف الشبهات

عقد

علق عليه ووضع أبوابه

سماحة الشيخ

عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين

بعناية

خالد بن محمد بن مجاهد الحربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

تُعَدُّ "حاشية كشف الشبهات" للشيخ عبدالله بن عبد الرحمن البسام، رحمه الله، من أنفس الحواشي، وقد أبان الشيخ في مقدمته عن منهجه في تسهيل الكتاب وتقريبه من خلال إدراج أبواب مُنظمة تُحدد الموضوعات بوضوح، وربط كل باب بما يحتويه من نصوص، مما يوفر شرحًا وإيضاحًا دقيقين.

ولقد استعنت بالله تعالى بعد نفادِ نسخِه، وكثرةِ سؤال الناس عنه، وشرعت في إعادة إخراج وطباعة وتنسيق جديد لهذه الحاشية كما وضعها المؤلف، مع تصحيح الأخطاء المطبعية، مما يُعزز من جودتها ويُسهل قراءتها.

وقد حرصت على أن تبقى هذه الطبعة مطابقة لما أعده المؤلف، دون إضافة أو حذف، فجميع التعليقات والحواشي هي من تأليفه رحمه الله، كما في الطبعة الأولى التي صدرت عام ١٣٧٧هـ عن دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، مما يضمن أصالة المادة العلمية وموثوقيتها.

فهذه الحاشية، أقدمها للقارئ الكريم، راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها، وأن يُثيب العلامة الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن البسام رحمه الله على ما قدَّمه من علم ونشره وبيانه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

خالد بن محمد بن مجاهد الحربي

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذه رسالة جليلة لشيخ الإسلام " محمد بن عبد الوهاب " رحمه الله، كشف بها ما لبس بعض المبطلين من شبهات يحاولون بها طمس معالم التوحيد وتضليل أهله، ولكون المصنف – رحمه الله – أجاب بها على أسئلة وردت عليه، فقد كتبها مجملة لم يتخللها أبواب ولا فصول، وقد كتبها أيضا بأسلوب يناسب أفهام كبار العلماء.

لذا فقد شكا إليَّ بعض الأساتذة ما يلاقيه التلاميذ الصغار من صعوبة في فهمه، ومشقة في الإحاطة به؛ فبادرت إلى المساهمة في خدمة هذا العلم الجليل بتسهيل هذا الكتاب وتقريبه من أفهام التلاميذ، بإقحام أبواب تناسب الكلام المبوب له وتحدد موضوعه، ثم عمدت إلى ربط الباب وما تحته من الكلام بمناسبة تكون بمثابة الشرح والإيضاح، ثم أشرت إلى ما فيه من ألفاظ غريبة على الناشئين بحل خفيف يقربها من أفهامهم.

وهذا العمل وإن اعتبر مساعدة للناشئين إلا أنه – مع ذلك – يعين الكبار على تركيز معاني الكتاب، وتحديد مقاصده، وتفصيل مسائله ومواضيعه.

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم مقربا لديه في جنات النعيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم –رحمك الله– أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وهو: دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده، فأولهم: نوح عليه السلام، أرسله الله إلى قومه لما غلوا[1] في الصالحين: ودّاً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، وآخر الرسل: محمد ﷺ، وهو: الذي كسر صور هؤلاء الصالحين.

باب
" في أن التوحيد دعوة الرسل جميعا "

مناسبة الترجمة:

[١] أراد المصنف – رحمه الله – أن يبين في فاتحة هذا الكتاب أن التوحيد أصل عظيم، فجميع العبادات مبنية عليه وهو أساسها، ولذا فإن الرسل قد أجمعت على الدعوة إليه، وهو أول ما تخاطب به أممها.

---

(١) تجاوزوا بهم مقدار مراتبهم، حتى وصل بهم الغلو إلى درجة عبادتهم، وذلك أنهم حين ماتوا أوحى إليهم الشيطان أن اصنعوا لهم صوراً لتتأسوا بهم عند العبادة، فلما طال عليهم الأمد، وأتى من بعدهم عبدوا تلك الصور، وما زالت تعبد حتى انتشر الجهل وفسد الدين، حتى جاء الإسلام فقضى عليها.

أرسله الله [١] إلى قوم يتعبدون، ويحجون، ويتصدقون، ويذكرون الله، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده؛ مثل الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين، فبعث الله محمداً ﷺ: يجدد لهم دين [١] أبيهم إبراهيم، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض [٢] حق الله، لا يصلح منه شيء لغيره لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون: مقرون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيها، كلهم عبيده، وتحت تصرفه وقهره.

باب

"في أن التوحيد أصل العبادات"

مناسبة الترجمة:

[١] أراد المصنف رحمه الله أن يوضح ما تقدم من أن التوحيد أصل العبادات، وأنه المرجع فيها فقبولها مبني على صحته، وأنها بدون تحقيقه مردودة على صاحبها، ودلل على هذا الأصل من أن النبي ﷺ بعث إلى قوم يتعبدون بأنواع العبادات، ولكونهم لم يوحدوا لم تفدهم هذه العبادات شيئا.

(١) الذي هو التوحيد الخالص، والحنيفية السمحاء.

(٢) الخالص: أي خالص حق الله تعالى.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء -الذين قاتلهم رسول الله ﷺ- يشهدون بهذا، فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ ومَن فِيها إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ[1] كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ[2] إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[3] وغير ذلك من الآيات.

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه؛ هو توحيد العبادة[4]، الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً.

باب
" في أن مناقشة المشركين في توحيد الإلهية "

مناسبة الترجمة:

التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والمصنف أراد أن يبين أن التوحيد الذي جاءت به الرسل، وأنزلت من أجله الكتب: هو توحيد الإلهية، حيث إنه مدار النقاش بين الرسل وقومهم.

أما توحيد الربوبية: الذي هو الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق المدبر وحده، فقد أقر به المشركون، ثم استدل على ذلك بما بين يديك من الآيات.

هذا وإقرارهم بتوحيد الربوبية فقط لم يدخلهم في الإسلام.

---

(١) مبالغة في الملك: أي مالك كل شيء.

(٢) يمنع من شاء من عباده، ولا يمتنع عليه أحد فهو القاهر الغالب.

(٣) أي: كيف تُخدعون عن الحق مع إفصاحه لكم.

(٤) هو توحيد الإلهية.

ثم منهم [١] من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم، وقربهم إلى الله؛ ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات [(١)]، أو نبياً مثل عيسى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة (لله)؛ كما قال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾، وقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ [(٢)] وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾.

باب
" في إخلاص الدعاء لله وحده "

مناسبة الترجمة:

[١] يريد المصنف – رحمه الله – أن يبين أن الدعاء خالص حق الله تعالى، فليس لنبي مرسل، ولا لملك مقرب، وأن من دعا غير الله فهو مشرك مهما كانت منزلة المدعو من دون الله تعالى، واستدل على ذلك بما أورد من الآيات، وأن النبي ﷺ قاتل قوما بعضهم يدعو الملائكة، وبعضهم يدعو الأنبياء، وبعضهم يدعو الصالحين.

---

(١) رجل كان يلت السويق لقومه وحين مات عكفوا على قبره.

(٢) هي تحقيق "لا إله إلا الله".

وتحققت [١] أن رسول الله ﷺ قاتلهم؛ ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادات كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكة، والأنبياء، والأولياء – يريدون شفاعتهم، والتقرب إلى الله بذلك – هو الذي أحل دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

باب

" قتال الكفار لتحقيق التوحيد "

مناسبة الترجمة:

[١] يقصد المصنف – رحمه الله – أن ينبه على أن النبي ﷺ لم يقاتل المشركين إلا ليخلصوا العبادة لله وحده، ولا يشركوا معه غيره ؛ وأن قصدهم غيره – يريدون منهم الشفاعة والوساطة – هو الذي أحل له دماءهم وأموالهم.

وهذا التوحيد [١] هو معنى (١) قولك: "لا إله إلا الله"، فإن "الإله": هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور؛ سواء كان ملكاً، أو نبياً، أو ولياً، أو شجرة، أو قبراً، أو جنياً، لم يريدوا أن "الإله" هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك، وإنما يعنون بـ "الإله": ما يعني المشركون في زماننا بلفظ "السيد"، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد، وهي "لا إله إلا الله"، والمراد من هذه الكلمة معناها، لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة: هو إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يعبد من دون الله، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: "قولوا: لا إله إلا الله"، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً (٢) إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفرة، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى "لا إله إلا الله" (٣).

باب

" في تحقيق معنى لا إله إلا الله "

مناسبة الترجمة:

[١] يشير المصنف – رحمه الله – إلى أن ما تقدم من إخلاص العبادة هو تحقيق معنى لا إله إلا الله، وأن من قصد بشيء من هذه العبادات غير الله تعالى فقد أشرك مع الله غيره، ولو لم يعتقد أنه يخلق ويرزق ويدبر، وكفى بهذا شركا يستحق صاحبه الخلود في النار.

---

(١) نفي العبادة عمن سوى الله وإثباتها لله وحده.

(٢) يعني : حصر العبادة في معبود واحد مع أنها – في زعمهم – متعددة في آلهة كثيرة.

(٣) فإن النبي ﷺ لما قال لكفار قريش قولوا: "لا إله إلا الله"؛ عرفوا مدلولها من أنها تثبت العبادة والدعاء لإله واحد عند ذلك نفروا منها، والمؤسف أنه يوجد في الأقطار الإسلامية من يلهجون بهذه الكلمة ولكن لا يفطنون لما فطن إليه كفار قريش عند سماعها، فتراهم يهرعون إلى القباب المشيدة فوق الأموات لينقضوا ما يتلفظون به من معنى لا إله إلا الله بطلب الحاجات وتفريج الكربات.

إذا عرفت [١] ما ذكرت لك معرفة قلب [1]، وعرفت الشرك بالله الذي قال فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ [2] ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا، أفادك فائدتين:

الأولى [٢] الفرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

---

[١] تمهيد للفائدتين الآتيتين:

"الفائدة الأولى: الفرح بفضل الله "

مناسبة الترجمة:

[٢] يريد المصنف – رحمه الله – أن من حقق التوحيد الذي هو معنى "لا إله إلا الله" بقلبه وقالبه، حصل له من السرور والفرح ما يملأ قلبه بشرا وغبطة، ذلك أن تحقيق التوحيد واستنارة القلب به؛ هو فضل الله الأعظم، ونعمته الكبرى، وجدير بمن رزق هذا أن يشكر الله بعبادته، ويحمده على ذلك.

---

(١) اعتقاد ويقين.

(٢) هي الذنوب التي دون الشرك بالله تعالى.

وأفادك أيضاً [١] الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما "كان يفعل" الكفار، خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، فحينئذٍ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

" الفائدة الثانية: الخوف من سخط الله "

مناسبة الترجمة:

[١] كما أن من حقق التوحيد فرح بفضل الله، كذلك يجب عليه ألا يطغى عليه الغرور، فيأمن جانب الشرك، بل يكون فطنا حذرا، فربما أخرج الكلمة التي لا يظن أنها كبيرة، فتهوي به سبعين خريفا في جهنم،

ومع الأسف الشديد كثيرا ما نسمع، ويبلغنا عن بعض الشباب الاحتقار، والاستهزاء برجال الدين، وعلوم الشريعة، وهذا أمر خطير يخشى عليهم من أجله الخروج من دائرة الإسلام، فالله تعالى ذكر لنا كفر من جاهدوا مع النبي ﷺ، وصلوا معه من أجل أنهم سخروا من بعض قراء الصحابة، و لم ينفعهم اعتذارهم، بل قال الله في حقهم ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾، فالناصح لنفسه ودينه يحذر من مثل هذا، ويُحذِّر إخوانه فالدين النصيحة.

واعلم [١] أنه سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (١) يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (٢)، وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكتب، وحجج؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا (٣) بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

إذا عرفت أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة، وعلمٍ، وحُجج؛ فالواجب عليك: أن تعلم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم (٤)، ومقدمهم لربك عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِن خَلْفِهِمْ وعَنْ أَيْمانِهِمْ وعَنْ شَمَائِلِهِم﴾ (٥)، ولكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حججه، وبيناته، فلا تخف: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (٦).

باب

" في اتخاذ العدة لأعداء الدين "

مناسبة الترجمة:

[١] لما ذكر المصنف – رحمه الله – أن لكل نبي عدوا من شياطين الإنس والجن، وأنه ربما صار معهم من الحجج الشيطانية ما يلبسون بها، ذكر أنه لابد لكل مسلم يريد المحافظة على دينه أن يتسلح بالسلاح الذي يحفظه، ويقيه كيدهم وشرهم، والسلاح في هذا الموطن هو العلم النافع الذي يدفع به حججهم الباطلة.

---

(١) فالإنس يجادلون ويقاتلون وما إلى ذلك، والجن يوسوسون ويحسنون.

(٢) أي: يوسوس بعضهم إلى بعض القول المموه المزين وهو باطل ليغروهم.

(٣) أي : فرح هؤلاء المعاندون للرسل بما حصلوه من علوم دنيوية واستكبروا على العلوم التي تأتي بها رسلهم من عند الله، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ما نراه من بعض شباب هذا العصر من افتخار بما تعلموه من لغات أجنبية وبعض علوم طبيعية ورياضية لا تعدو أن تكون وسيلة للكسب، ومع هذا يتعالون بها على العلوم الشرعية التي جاءت لسعادة الإنسانية في دينها ودنياها، إن ذلك يجعلنا نقرن حالهم بحال أولئك المجادلين للرسل هدانا الله جميعا لما فيه صلاح ديننا ودنيانا.

(٤) أي: الذين يأتمون ويقتدون به في إضلال الناس.

(٥) أي : من جهاتهم الأربع.

(٦) أي : مهما كانت قوة أعداء الدين وحججهم فهي ضعيفة بجانب الحق متى صحت النيات وصدقت العزائم.

والعاميُّ [١] من الموحدين يغلب ألفاً من علماء هؤلاء المشركين(١) ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسِّنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح(٢)، وقد مَنَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله الله ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها، ويبين بطلانها(٣)؛ كما قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

باب
" من تسلح بكتاب الله نصره الله "

مناسبة الترجمة:

[١] لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التسلح بالعلم النافع لدحض حجج أعداء الدين، ذكر رحمه الله هنا فائدة هذا السلاح وثمرته، وهي: أن صاحبه يهزم جند الشيطان مهما نصبوا من الحجج ؛ ذلك لأن الله تعالى قد أودع هذا الكتاب العزيز من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة ما يهزم به كل مبطل.

---

(١) ذلك لأن حجج الباطل مدحوضة، فالنظر الصحيح فيها كاف لردها وتزييفها.

(٢) السلاح هنا العلم النافع ومثل هذا يكون نقصا على الإسلام والمسلمين لأن الأعداء المغرضين يجعلونه حجة على صحة باطلهم وتنقص الإسلام ولو كانوا يعلمون حقيقة الأمر.

(٣) لأن الله تعالى قد نصبه حجة قائمة على البشر إلى أن تقوم الساعة مهما تعددت مذاهبهم وتباينت عقائدهم ففيه ما يردها ويبطلها.

وأنا [١] أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا؛ فنقول: جواب أهل الباطل من طريقتين: مجمل، ومفصل.

باب
"في أجوبة حجج المبطلين"

مناسبة الترجمة:

[١] لما ذكر المصنف رحمه الله في الكلام السابق أن المبطلين لهم حجج يتعلقون بها، وأن القرآن كفيل برد حججهم وكيدهم، أراد هنا أن يقدم بين يديك بعض هذه الشبه التي يموهون بها على ضعفاء العقول وقليلي العلم، ثم يردفها بما ينقضها من أجوبة مجملة ومفصلة فبدأ بالمجمل.

وملخصه: أن المبطل قد يلقي عليك بعض الشبه، ويحاول الاستدلال عليها ببعض النصوص المتشابهة، ثم لا يكون لديك العلم الكافي لفهم هذا المتشابه وإرجاعه ليوافق المحكم، فطريقك في هذا المجال أن تجادله بما لديك من نصوص محكمة واضحة، وأن تبين له أن المحكم والمتشابه كله من عند الله، والطريق السليم هو رد المتشابه إلى المحكم لا العكس- وهو تحريف المحكم الواضح ليوافق ظاهر المتشابه-، وهذه طريق لرد شبه المبطل نافعة.

أما المجمل: فهو الأمر العظيم، والفائدة الكبيرة لمن عقلها[1]، وذلك قوله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ[2] هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ[3] وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ[4] فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ[5] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ[6]﴾، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))، مثال ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وإن الشفاعة حق، وإن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه.

وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يُقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة، والأنبياء، والأولياء مع قولهم:﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾؛ هذا أمر محكم بيِّن، لا يقدر أحد أن يغير معناه، وما ذكرته لي - أيها المشرك - من القرآن، أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله، وهذا جواب سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى، فلا تستهن به، فإنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

---

(١) فهمها وعمل بها.

(٢) بينات واضحات.

(٣) هي العمد والأصول التي يرد إليها المتشابه.

(٤) خفية المعنى والدلالة.

(٥) أي: ميل عن الحق.

(٦) أي: طلبا لفتنة الناس وطلبا لتحريف النصوص عن معانيها الصحيحة.

وأما الجواب المفصل: [١] فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس، منها قولهم: نحن لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق، ولا يرزق، ولا ينفع، ولا يضر، إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن عبد القادر أو غيره، ولكن أنا مذنب، والصالحون لهم جاه عند الله، وأطلب من الله بهم، فجاوبه بما تقدم؛ وهو: أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه.

"الجواب المفصل "

مناسبة الترجمة:

[١] فأول ما ذكر المصنف من الأجوبة المفصلة: أن المبطل الذي يدعو ويجعل بينه وبين الله تعالى واسطة من الخلق بحجة أن لهم جاها عند الله، ثم يعمد إلى تبرير موقفه باعترافه بانفراد الله بالخلق والتدبير، وبأن النبي ﷺ ومن دونه لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

فجوابه: أن الذين قاتلهم النبي ﷺ معترفون بانفراد الله بالتدبير، و لم يقصدوا من معبوداتهم إلا ما قصدتم من هؤلاء الصالحين.

فإن قال [١]: هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام؛ كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً؟، فجاوبه بما تقدم، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكره، فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الصالحين والأصنام، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، ويدعون عيسى ابن مريم وأمه، وقد قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ (١) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ (٢) وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (٣) كَانَا يَأْكُلانِ (٤) الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٥)﴾، واذكر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ (٦) أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ (٧) أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾، فقل له: أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام، وكفر أيضاً من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله ﷺ ؟

باب

"دعاء غير الله شرك ولو كان المدعو صالحا "

مناسبة الترجمة:

[١] هذا جواب لاعتراض ربما يسوقه المبطل أثناء المجادلة معه في البحث السابق.

وملخصه: أن يقول: إن الذين قاتلهم النبي ﷺ يجعلون واسطتهم أصناما من أحجار ونحوها، فكيف يُسوَّى بين الأصنام والصالحين؟

وجوابه من وجهين: الأول: أن الدعاء محض حق الله، وصرفه لغيره شرك.

الثاني: أن من المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ من يدعو الملائكة، ومنهم من يدعو الصالحين، ومنهم من يدعو الأنبياء إلى غير ذلك.

---

(١) أي : ليس إلها كما يزعم الغلاة به، فهو رد عليهم.

(٢) أي: فهو سار على طريقهم في التبليغ والإرشاد.

(٣) أي : بلغت في الصدق والتصديق منزلة رفيعة.

(٤) أي : فهما ناقصان عن رتبة الإلهية لافتقارهما إلى غيرهما.

(٥) أي : كيف يصرفون عن الحق مع ما أقمناه من الأدلة الواضحة.

(٦) أي : ننـزهك عن أن ترضى أن نعبد معك أو نعبد من دونك.

(٧) عبادتهم للجن طاعتهم لهم في الكفر بالله تعالى.

فإن قال [١]: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار، المدبر، لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا قول الكفار سواء بسواءٍ فاقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (١)﴾، وقوله تعالى: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

واعلم أن هذه الشبه الثلاث (٢) هي أكبر ما عندهم، فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه، وفهمتها فهماً جيداً؛ فما بعدها أيسر منها.

باب

" في أن طلب الشفاعة من غير الله شرك "

مناسبة الترجمة:

[١] فكما أن جعل المخلوق واسطة في الدعاء شرك، فكذلك طلب الشفاعة من المخلوق شرك، حيث إن الذي يقدر عليها ويعطيها هو الله وحده، أما المخلوق فلا يملكها، وطلبه ما لا يقدر عليه لون من الشرك، وهذا لا ينافي ثبوت الشفاعة للأنبياء والصالحين وأطفال المؤمنين وغيرهم ممن جعلها الله لهم بإذنه، ولكن طريقها الصحيح أن تسأل الله تعالى أن يُشَفِّعَهُم فيك، فإنَّ طلبها منهم كطلب المشركين الشفاعة من أصنامهم.

---

(١) القربى منه.

(٢) الأولى : أن الله أعطاهم جاها فأنا أطلب منهم ما أعطاهم.

الثانية: أن الآيات التي تحاجهم بها يزعمون أنها نزلت فيمن يعبد الأصنام فقط.

الثالثة: يحتجون بأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والكفار يريدون من أصنامهم النفع، فهم يشركونها مع الله تعالى، وقد عرفت مما سبق وما يأتي الجواب على هذه الشبه الواهية.

فإن قال [١]: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة.

فقل له: أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة، وهو حقه عليك؟ فإذا قال: نعم.

فقل له: بيِّن لي هذا الذي فرض عليك، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهو حقه عليك، فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها، فبينها له بقولك: قال الله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً (١)﴾، فإذا أعلمته بهذا، فقل له: هل عَمِلْتَ هذا عبادة لله؟ فلا بد أن يقول لك: نعم (٢)، والدعاء مخ العبادة (٣).

فقل له: إذا أقررت أنه عبادة لله، ودعوت الله ليلاً ونهاراً، خوفاً وطمعاً، ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً أو غيره؛ هل أشركتَ في عبادة الله غيره، إذ قال الله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ وأطعت الله ونحرت له؟ فلا بد أن يقول: نعم.

فقل له: إذا نحرت لمخلوق: نبي، أو جني، أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بد أن يقر، ويقول: نعم.

وقل له أيضاً: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك، وإلا فهم مقرون أنهم عبيد الله وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم، والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدًّا.

باب

" في أن دعاء غير الله كالنحر لغير الله "

مناسبة الترجمة:

[١] فرض – رحمه الله – أن أمامك معاندا أنكر أن دعاء الصالحين والالتجاء إليهم شرك، لأن ذلك – بزعمه – ليس عبادة لهم، وبإفحامه بالآيات والأحاديث اضطر إلى الاعتراف بأن الدعاء عبادة، وهو مقر أن الذبح عبادة وصرفه لغير الله شرك، وحيث اعترف أن الدعاء عبادة كالذبح، فإنَّ جَعْلَهُمَا لله تعالى وحده توحيد وإخلاص، وصَرْفَهُمَا عنه أو شِرْكُ أَحَدٍ معه فيهما أو في أحدهما شرك.

(١) ﴿تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ أي: متضرعين لله لاسيما في حال الخفاء الذي هو دليل الإخلاص.

(٢) لأنه حينئذ لا يتمكن من الإنكار حيث سدت عليه المسالك بالحق.

(٣) أي: خلاصتها وروحها.

فإن قال [١]: أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع والمشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾، ولا تكون إلا من بعد إذن الله؛ كما قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ (١) عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحدٍ حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد (٢)، تبين لك أن الشفاعة كلها لله، وَأَطْلُبُهَا منه، وأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفِّعه فِيَّ، وأمثال هذا.

فإن قال: النبيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشفاعة، وأنا أطلبه مما أعطاه الله!

فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعة، ونهاك عن هذا، فقال: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾، وأيضاً: فإن الشفاعة أعطيها غير النبي ﷺ، فصح أن الملائكة يشفعون، والأفراط يشفعون، والأولياء يشفعون، أتقول: إن الله أعطاهم الشفاعة وأطلبها منهم؟ فإن قلت هذا؛ رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه، وإن قلت: "لا"، بطل قولك: "أعطاه الله الشفاعة، وأنا أطلبه مما أعطاه الله".

باب

" في إثبات الشفاعة. . . ولكن بعد إذن الله ورضاه "

مناسبة الترجمة:

[١] لما ذكر المصنف رحمه الله أن طلب الشفاعة من المخلوق شرك؛ لأنه لا يمكن حصولها إلا من الله تعالى، ذكر هنا أنه ربما أدلى أحد المعاندين بشبهة ملخصها أن يقول: هل تنكر شفاعة النبي ﷺ ؟

وجوابه: أنني لا أنكر شفاعة النبي ﷺ؛ بل هو شافع مشفع، ولكن الشفاعة لله تعالى لا تطلب إلا منه وحده، فإذا أراد رحمة أحد من عباده المستحقين للشفاعة، فإنه تعالى يأذن للشافع بالشفاعة لمستحقها، فيرحمه بسبب هذه الشفاعة، فتكون فضلا من الله ووجاهة وتكريما للشافع، رحمة وإحسانا للمشفوع له، وتحقق الشفاعة لا يكون إلا بإذن الله تعالى للشافع، ورضىً عن المشفوع له؛ ولا يرضى إلا عن الموحدين، وليس في قصر الشفاعة على الله ونفيها عن الرسول ﷺ استقلالا، وليس في ذلك تنقص له بل هو تعظيم له وإجلال، لأنه امتثال لأمره، وتصديق لخبره، وهو بريء من الشرك وأهله.

---

(١) الاستفهام بمعنى النفي، وفيه إنكار على من يشفع بدون إذن من الله تعالى.

(٢) لحديث: "من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: من قال:" لا إله إلا الله خالصا من قلبه".

فإن قال [١]: أنا لا أشرك بالله شيئاً، حاشا وكلا! ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك.

فقل له: إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقر أن الله لا يغفره، فما هذا الأمر الذي عظمه الله، وذكر أنه لا يغفره؟ فإنه لا يدري.

فقل له: كيف تبرِّئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يُحرِّمُ الله عليك هذا، ويذكر أنه لا يغفره؛ ولا تسأل عنه ولا تعرفه، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟

باب

" في أن الالتجاء إلى غير الله شرك "

مناسبة الترجمة:

[١] الملتجئ إلى الصالحين فيما لا يقدرون عليه، وما هو من مقدور الله وحده، يحاول أن يبعد هذا العمل عن الشرك لاعترافه أن الشرك أعظم الذنوب إطلاقا، إذ أن المعاصي التي دون الشرك تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفرها فضلا منه وكرما، وله أن يعاقب بها حكمة منه وعدلا، أما الشرك فمضاجعه غير مغفور له بل مخلد في النار، وذنب كهذا أيتركه الله تعالى بلا بيان شاف ؟ كلا، فإنه من تمام حكمة الله ورحمته بخلقه أنه كلما كانت الحاجة إلى الشيء شديدة كانت عناية الله ببيانه وإيضاحه أعظم وأهم، ولكن المعرضين عن الحق لا يفقهون.

فإن قال [١]: الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام، فقل: وما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلُق، وترزق، وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذبه القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

وإن قال: هو من قصد خشبة، أو حجراً، أو بِنْيَةٍ على قبر أو غيره؛ يدعون ذلك، ويذبحون له، ويقولون: إنه يقربنا إلى الله زلفى، ويدفع عنا ببركته، فقل: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار، والبنايات التي على القبور وغيرها، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام، وهو المطلوب.

ويقال له أيضاً قولك: "الشرك عبادة الأصنام"، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا، وأن الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في هذا؟

فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة، أو عيسى، والصالحين، فلا بد أن يقر لك: أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين؛ فهو الشرك المذكور في القرآن؛ وهذا هو المطلوب.

باب

" في أن المشركين لم يعتقدوا في أصنامهم التدبير ولكن عبدوهم طلبا للزلفى "

مناسبة الترجمة:

[١] تقدم ما يشابه هذه الترجمة من أن المعاندين المجادلين يبررون موقفهم في قصدهم قبور الصالحين لطلب الحاجات، أن ذلك ليس شركا لأنهم يعرفون أنها لا تدبر، ولكنهم يجعلونهم واسطة بينهم وبين ربهم لقرب منزلتهم، وجواب هذه الشبهة هو: أن ما يقولونه في تدبير موقفهم من دعاء القبور هو ما قاله المشركون من أنهم ما يعبدون أصنامهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، وقاصد الجن والشجر كقاصد النبي والتقي حيث إن كلًّا منهما قصد الزلفى.

وسر المسألة أنه إذا قال [١]: أنا لا أشرك بالله، فقل له: وما الشرك بالله؛ فسره لي؟

فإن قال: هو عبادة الأصنام.

فقل: وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي؟ فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله وحده.

فقل: ما معنى عبادة الله وحده فسرها لي؟ فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب، وإن لم يعرفه فكيف يدَّعي شيئاً وهو لا يعرفه؟

وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله، وعبادة الأوثان الذي يفعلون في هذا الزمان بعينه، وأن عبادة الله وحده لا شريك له؛ هي التي ينكرونها علينا، ويصيحون كما صاح إخوانهم حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

باب

" إفحام المعاند ببيان حقيقة العبادة "

مناسبة الترجمة:

[١] وسر إفحامه أنه سينفي عن نفسه الشرك، فحينئذ يُسأل عن الشرك فيفسره: بعبادة الأصنام، فإذا سئل عن عبادة الأصنام شَعُرَ – حينئذ – بالهزيمة فيحيد عن الجواب بإثبات عبادته لله وحده، فإذا سئل عن عبادة الله وحده، فإنْ فسرها بالحق فهو المطلوب، وإن فسرها بغيره فبيِّن له التوحيد الخالص، فإن قَبِل فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها، وإن لم يقبل فله أسوة سيئة بمن قالوا: أجعل الآلة إلها واحدًا.

فإذا عرفت [١] أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا هذا " الاعتقاد "؛ هو الشركُ الذي نزل فيه القرآن، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخفُّ من شرك أهل زماننا بأمرين:

(أحدهما): أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء أوثاناً مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ (١) مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَمْ (٢) إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۞بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ (٣) مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً (٤) إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، وقوله:﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ (٥) مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

باب

" في أنه قد يكون في هذه الأمة من هو أشد كفرا من أهل الجاهلية "

مناسبة الترجمة:

[١] الإنسان أول ما خلق مفطور على توحيد الله ولكن التربية التي ينشأ عليها تطبعه بطابعها الخاص فإذا وفق فنشأ في بيئة صالحة لحسن معتقدها وقوة إيمانها تمت هذه الفطرة الأولى وتمكنت، وإن قدر له أن ينشأ في مجتمع ضال تَلَقَّى عمن حوله ضلالهم، وماتت تلك البذرة الصالحة التي أودعه إليه إياها يوم ولد، ولكنه حينما تصيبه شدة يرجع إلى تلك الفطرة الأصيلة في نفسه من الإخلاص لله تعالى، لأن الباطل يضمحل أمام عينيه فلا يبقى تلقاء وجهه لإنقاذه من كربته إلا من يعرف في قرارة نفسه قوته وقدرته، وسرعان ما يرجع إذا ما تزول عنه شدته، يرجع إلى غيه وينسى من يجيب دعوة المضطرين أبدا، وأعاد في هذه القضية مع أناس يدعون الأنبياء والصالحين فكيف من يقصد الفساق والضالين في جميع الأحوال؟

---

(١) ذهب كل من تدعونه وتعبدونه من دون الله ولم يبق حينئذ لكم ملجأ إلا الله وحده.

(٢) أخبروني إذا حل بكم العذاب أو قامت عليكم الساعة هل تدعون غير الله؟

(٣) فيزيل ما دعوتموه لإزالته إذا اقتضت حكمته وقدرته بذلك.

(٤) راجعا مقبلا إلى الله تعالى وحده.

(٥) إذا أحاط بهم الموج وظللهم كالسحاب المتراكم.

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم، تبيّن له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً؟ والله المستعان.

(والأمر الثاني): أن الأولين يَدْعُون مع الله أناساً مقربين عند الله؛ إما نبيا، وإما أولياء، وإما ملائكة، ويدعون أشجاراً وأحجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم: هم الذين يحكون عنهم الفجور؛ من الزنا، والسرقة، وترك الصلاة، وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح والذي لا يعصي مثل الخشب والحجر، أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.

إذا تحققت [١] أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً، وأخف شركاً من هؤلاء، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا، وهي من أعظم شبههم، فأصغ بسمعك لجوابها، وهي أنهم يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ، وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحراً، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي، ونصوم، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟

فالجواب: أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدَّق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء؛ أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج، ولما لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج، أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

باب

" في أنه لابد للمسلم من تحقيق الشهادتين "

مناسبة الترجمة:

[١] أراد المصنف – رحمه الله – أن ينبه على شبهة يدلي بها المعاندون وملخصها: أن من أقر بالشهادتين وصدق القرآن وآمن بالبعث وأدى الشعائر التي أوجبها الله عليه لا تنطبق عليه الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في شأن أناس لا يقرون بهذه الأشياء المذكورة ولا يؤدون الفرائض الواجبة ولا تنطبق عليه حينما يقصد قبراً لطلب الحاجة من صاحبه أو استغاث بولي بما لا يقدر عليه إلا الله تعالى أو ذبح أو نذر لغير الله تعالى.

والجواب: أن من عمل عملا من هذه الأعمال الشركية، فإنه وإن تلفظ بالشهادتين لم يحققهما، وإذا لم يحقق هاتين الشهادتين فقد هدم العقيدة من أساسها، كما أن الإيمان ببعض والكفر ببعض هو الذي عابه الله على اليهود بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُون بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ولا يكون الإنسان مؤمنا حتى يصدق ويؤمن بكل ما ورد عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ ، وإلا فالكفر ببعض ما جاء عن الله يهدم الإيمان ببعضه.

ومن أقر بهذا كله وجحد البعث؛ كفر بالإجماع، وحل دمه وماله، كما قال جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾، فإذا كان الله قد صرح في كتابه أن من آمن ببعضٍ فهو الكافر حقاً، وأنه يستحق ما ذكر، زالت هذه الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسله إلينا.

ويقال أيضاً: إذا كنت تقر أن من صدق الرسول في كل شيء، وجحد وجوب الصلاة أنه كافر حلال الدم بالإجماع، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان لا يجحد هذا، ولا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدمنا، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ ، وهو أعظم من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر، ولو عمل بكل ما جاء به الرسول، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟ سبحان الله! ما أعجب هذا الجهل.

ويقال أيضاً [١]: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويؤذنون، فإن قال: إنهم يقولون: أن مسيلمة نبي، قلنا: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ كفر، وحل ماله ودمه، و لم تنفعه الشهادتان، ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف، أو صحابياً، أو نبياً، في مرتبة جبار السماوات والأرض؟ سبحان الله! ما أعظم شأنه! ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

ويقال أيضاً: الذين حرَّقهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه كلهم يدّعون الإسلام، وهم من أصحاب عليٍّ رضي الله عنه، وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في عليٍّ رضي الله عنه مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أم تظنون الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر، والاعتقاد في عليٍّ بن أبي طالب يُكفِّر؟

ويقال أيضاً: بنو عبيد القدَّاح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس، كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويدعون الإسلام، ويصلون الجمعة، والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه، أجمع العلماء على كفرهم، وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين.

فصل

" متمم للباب الذي قبله "

مناسبة الترجمة:

[١] ملخص ما في هذا الفصل أن الشيخ – رحمه الله– ذكر هنا ثلاثة أمثلة، كدليل على ما قرره سابقا من أن من آمن بعض وكفر ببعض لا ينفعه هذا الإيمان المبعَّض.

فالمثال الأول: بنو حنيفة الذين أقروا بالشهادتين وأدوا الفرائض ولكنهم صدقوا دعوى مسيلمة بالنبوة فقاتلهم الصحابة.

الثاني: الذين غلوا في علي مع تظاهرهم بالإسلام حرقهم علي رضي الله عنه.

الثالث: العبيديون أقروا بالشهادتين، وتظاهروا بالقيام بشعائر الدين، ولكنهم لما ظهر منهم بعض المخالفة للدين أجمع العلماء على كفرهم.

فعلم بهذا أنه لابد من الإيمان والانقياد لكل ما جاء عن الله ورسوله لمن أراد الإيمان حقيقة.

ويقال أيضاً: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك، وتكذيب الرسول ﷺ والقرآن، وإنكار البعث، وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب "باب حكم المرتد": وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثم ذكروا أنواعاً كثيرة، كل نوعٍ منها يُكَفِّر، ويُحِلُّ دم الرجل وماله، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب.

ويقال أيضاً [١]: الذين قال الله فيهم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾؛ أما سمعت أن الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ ، يجاهدون معه، ويصلون معه، ويزكون، ويحجون، ويوحدون، وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم، وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح، فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم: تُكفِّرون المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله، ويصلون، ويصومون، ثم تأمل جوابها، فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق، ومن الدليل على ذلك ما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل مع إسلامهم، وعلمهم، وصلاحهم، أنهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وقول ناس من الصحابة: ((اجعل لنا ذات أنواط))، فحلف ﷺ أن هذا نظير قول بني إسرائيل: اجعل لنا إلهاً.

باب " في الحذر من الكفر "

مناسبة الترجمة:

[١] يعتبر هذا الباب لاحقا لما قبله، وهو أن الإنسان يكون قائما بشعائر الدين، فيعمل أو يقول ما يوقعه في الكفر أو الشرك لا ينفعه ما تظاهر به من شعائر الدين، وهذا يوجب الخوف والحذر الشديد من الزلل في مزالق الضلال من حيث لا يشعر الإنسان، فهؤلاء أناس كانوا يجاهدون مع النبي ﷺ، ويؤدون معه شعار الإسلام، فاستهزؤوا ببعض الصحابة، فبهذا فقط خرجوا من دائرة الإسلام، ولم ينفعهم اعتذارهم للنبي ﷺ، كما لم يشفع لهم ما قاموا به من شعائر الإسلام، وبهذه المناسبة يجدر بي أن أحذر بعض مغروري ناشئة المدارس من الاستهزاء بعلماء الدين وكتبه وعلومه، وألا يلتفتوا إلى ما يسمعون من بعض السفهاء، فإنه مع الأسف يوجد في بعض الشباب المتزندقين من يجاهر بالسخرية بشعائر الإسلام، ولاشك أن هـذا أكبر من سخرية الذين كفرهم الله ولم يقبل عذرهم بقوله ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ حينما قالوا كلمة بسيطة في ظاهر الأمر في بعض الصالحين على وجه المزح، فالناصح يحاسب نفسه ويصون لسانه والله الموفق .

ولكن للمشركين شبهة [١] يدلون بها عند هذه القصة، وهي أنهم يقولون: إن بني إسرائيل لم يكفروا، وكذلك الذين قالوا: "اجعل لنا ذات أنواط"[١] لم يكفروا.

فالجواب أن تقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا، ولا خلاف في أن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك، ولو فعلوا ذلك لكفروا، وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب، ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها، فتفيد التعلم والتحرز، ومعرفة أن قول الجاهل: "التوحيد فهمناه" أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان، "وتفيد" أيضاً أن المسلم إذا تكلم بكلام كُفر وهو لا يدري فنُبِّه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر، كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا النبي ﷺ، "وتفيد" أيضاً أنه لو لم يكفر فإنه يُغَلَّظ عليه الكلام تغليظاً شديداً، كما فعل رسول الله ﷺ.

باب

"المتكلم بالكفر مع الجهل به إذا تاب لا يكفر"

مناسبة الترجمة:

[١] تقدم في الباب السابق أن بني إسرائيل طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها، فلم يأمرهم بتجديد دينهم، وأن بعض الصحابة طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كالمشركين، فنهاهم و لم يأمرهم بتجديد إسلامهم، فمعنى هذا أن مثل هذه الأشياء تقع على مسمع ومرأى من الأنبياء، و لم يُكَفِّرُوا بها، فكيف أنتم تكفرون بها ؟ هذه الشبهة.

وجوابها: أن بني إسرائيل وحديثي العهد بالإسلام من الصحابة طلبوا و لم يفعلوا بل انتهوا حينما نهوا ومجرد التكلم بالكفر مع التوبة عنه إذا كان من جاهل به لا يكفر وحال هؤلاء كذلك.

---

(١) شجرة ينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها للتبرك بها، وكان مع النبي ﷺ بعض الصحابة ممن لم يتمكن الإسلام في قلبه لقرب عهده بالكفر.

وللمشركين شبهة أخرى [١] يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: لا إله إلا الله، وقال له: " أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ " وكذلك قوله: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء الجهلة: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهو يقولون: لا إله إلا الله، وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم على بن أبي طالب بالنار.

وهؤلاء الجهلة يقولون: إن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال: لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع؟ وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه؟ ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث، ولن يفهموا.

باب

" في أن كلمة التوحيد لا تفيد من لم يحققها "

مناسبة الترجمة:

[١] وهذه شبهة أوردها المصنف – رحمه الله – ملخصها أن المعاندين يجدون أحاديث يزعمون أنها تفيد أن من قال: لا إله إلا إله فقط، فهو مسلم معصوم الدم والمال، ومن هذه الأحاديث قصة أسامة.

والجواب: أن كلا من اليهود والذين حرقهم علي يشهدون أن لا إله إلا الله ومع ذلك لم تنفعهم إذ لم يحققوها.

وكلمة التوحيد ليست عاصمة بلفظها، وإنما هي دليل العصمة، فيجب التثبت مع من قالها، فإن حققها فهو المسلم المعصوم، ومن لم يحققها بمجرد لفظها لا يعصمه، وحديث أسامة دليل على ما قلنا.

فأما حديث أسامة ﷺ فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: تثبتوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل؛ لقوله تعالى:﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى، وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه، وأن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك، والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال : ((أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!)) وقال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله)) هو الذي قال في الخوارج: ((أينما لقيتموهم فاقتلوهم))، ((لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)) مع كونهم من أكثر الناس عبادة، وتهليلاً، وتسبيحاً، حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وتعلموا العلم من الصحابة، لم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلام، لـمَّا ظهر منهم مخالفة الشريعة.

وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود، وقتال الصحابة بني حنيفة، وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة، حتى أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وكان الرجل كاذباً عليهم، وكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

ولهم شبهة أخرى [١]: وهي ما ذكر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلهم يعتذر، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.
قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً.

والجواب أن تقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك: فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك، وتقول له: ادع الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياته، وأما بعد موته، فحاشا وكلا أنهم سألوا ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه ﷺ ؟

باب

" الاستغاثة بالمخلوق على قسمين "

مناسبة الترجمة:

[١] أورد المصنف رحمه الله شبهة يتعلق المبطلون ببعض النصوص للاحتجاج على مشروعيتها، وهي الاستغاثة بالمخلوقين إطلاقا بلا تقييد، **والحق أن الاستغاثة بالمخلوق على قسمين:**

فالاستغاثة بما يقدر عليه المخلوق جائزة، وما ورد من النصوص بالاستغاثة بالمخلوق من هذا القسم: كاستغاثة الخلائق ببعض الأنبياء يوم القيامة إذا طال عليهم الموقف، وكاستغاثة الصحابة بالنبي ﷺ وهو حي على المنافق الذي يؤذيهم، فهذا وما أشبهه جائز، لأنه فيما يقدر عليه المخلوق، وقد أقره الشرع.

أما القسم الثاني: وهو الاستغاثة بما لا يقدر عليه المخلوق: كالاستغاثة بالأموات، أو الأحياء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا النوع شرك، وهو ما نهى الله تعالى عنه، وبهذا التفصيل تجتمع الأدلة، وتزول الشبهة، والله الموفق.

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم لما ألقي في النار اعترض عليه جبريل في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا.

قالوا: فلو كانت الاستغاثة شركاً لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه، فإنه كما قال الله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾، فلو أذن له أن يأخذ نار إبراهيم، وما حولها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ، ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منَّة فيه لأحد، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟

ولنختم الكلام [١] بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها، فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً، فإن عرف التوحيد و لم يعمل به فهو كافر مرتد معاند، ككفر فرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس، يقولون: إن هذا حق، ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه حق، ولكننا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، و لم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق، و لم يتركوه إلا لشيء من الأعذار، كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا (١) بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾، وغير ذلك من الآيات، كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ (٢) كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، ولا يعتقده بقلبه، فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (٣)﴾.

باب

" لا بد من تواطؤ القلب واللسان والعمل على التوحيد "

مناسبة الترجمة:

[١] ذكر المصنف رحمه الله أنه لابد من اتفاق كل من القلب واللسان وبقية الجوارح على التوحيد، فإن اختل أحدها، فإن التوحيد (لا) يتحقق، فإن أقر بلسانه وعمل ببقية جوارحه، ولكن قلبه غير مطمئن فهو المنافق ، وإن عرف بقلبه ولكن أبى أن يعترف بلسانه ويعمل ببقية جوارحه فهو الكافر الجاحد، فإن أقر بقلبه ولسانه ولكن لم يعمل، فإن كان تركه العمل جحودا فهو كافر أيضا، وإن كان تهاونا فهو العاصي المستوجب للعذاب الأليم، فإن أقر بقلبه ونطق بلسانه وصدَّق ذلك بعمل الجوارح فهو المؤمن الناجي من عذاب الله الفائز بنعيمه.

---

(١) استبدلوا بآيات الله – حيث حرفوها عن معانيها – ثمنا من رشوة وجاه دنيوي، فإنه قليل مهما كان، وإن كثر في نظرهم القاصر.

(٢) يعني يعرفون النبي ﷺ وما معه من الحق كمعرفتهم لأبنائهم، لتبينه تبينا كاملا في كتبهم التي حرفوها لتوافق باطلهم.

(٣) لما كانوا أشد ضررا على المسلمين وأعظم خطرا على الإسلام جوزوا بأعمق مكان في جهنم.

وهذه المسألة مسألة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به، لخوف نقص دنيا، أو جاه، أو مداراة لأحد، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته عما يعتقده بقلبه فإذا هو لا يعرفه، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ[1]﴾، فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر ويعمل به خوفاً من نقص مالٍ، أو جاهٍ أو مداراة لأحد، أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

---

(١) دل هذا على أنهم كانوا قبل ذلك مؤمنين ولكنهم كفروا بهذه الكلمة التي هي سخريتهم من بعض الصحابة، وفي هذا وجوب الحذر عن مزالق اللسان، نسأل الله تعالى السلامة والعصمة بمنه وكرمه.

والآية الثانية: قوله تعالى [١] ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخرةِ﴾ الآية، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفاً، أو مداراة، أو مَشَحَّةً بوطنه، أو أهله، أو عشيرته، أو ماله، أو فعل على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض، إلا المكره.

فالآية تدل على هذا من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾، فلم يستثن الله تعالى إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخرةِ﴾، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد، والجهل، والبغض للدين، أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظا من حظوظ الدنيا، فآثره على الدين، والله سبحانه وتعالى أعلم وأعز وأكرم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

باب

" في أن الإكراه على الكفر مع اعتقاد الإيمان لا يضر "

مناسبة الترجمة:

[١] لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى أسباب الكفر وحذر منه، ذكر هنا فضل الله تعالى على من فتن عن دينه وابتلي فيه، فإن الله قد جعل له سعة، فما دام أن قلبه مطمئن للإيمان ومنشرح له فلا عليه حرج فيما لو أكره على الكفر، فجاراهم بالظاهر وقلبه متعلق بالإسلام وكاره للكفر، وهذا قد اتقى الله ما استطاع، وفي هذا توسعة وفضل من الله تعالى والله لطيف بعباده، فنسأله تعالى أن يمن علينا بالإيمان الثابت، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن لا يسلبنا بل يرزقنا العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقد تم تسويد هذا التعليق والتبويب في ليلة السبت ٦/١١ / ١٣٧٦ هـ بمكة المكرمة

بقلم: عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام غفر الله له ولوالديه ولإخوانه والمسلمين آمين.

